صديق جديد

عن مجلة « تروستوري »

بقلم الأديب عثمان نويل بطرس ابراهيم

تطلعت من السيارة التى كنت أعمل فيها إلى أعلى ، فوجدت — مانى بيترز — وعلى شفتيه ابتسامة بريئة ، غير أن عينيه الزرقاوين — فى هذه المرة — كانتا تشعّان ببريق غريب

خالط عقله مسٌّ منذ أن كان فى العاشرة من عمره ، حينما حدث أنْ أصابه أحد رفقائه — دون قصد — بحجارة . ومما يحز فى نفسى ، أن أقول إننى كنت أكرهه بكل ما فى هذه الكلمة من معان ، وإن كنتُ أدْعُهُ يعبث بأدوات السيارة التى وضعتها فى «جاراج» بمدينة «جيرسى الجديدة» وذلك لمعرفتى أن جنونه من نوع غير خطر ، وأنه محتاج إلى ما يمكنه أنْ يتسلى به ، ولكنه أهاجنى اليوم ، أكثر من أىّ يوم سبق ، فقد قضيت عشر دقائق فى البحث عن أداة احتجت إليها لعمل مستعجل

تذكرت أن — مانى — أمعن فى العبث أمس — كما يفعل غالباً — فكان السبب فى هذا التأخير فأخذت ألعن الظروف التى خلقت لى مثل هذا المأزق الحرج ، وأخيراً وجدتها

يستطيع الحدادون أن يقسموا على أنّ شيئاً لا يزعجهم مثل اختلاف مواضع الآلات التى يضعونها فى أماكنها

لم أقل لـ « مانى » شيئاً ، إذ أعرف أنّ نتيجة ذلك ستكون سيئة ، وأنه لا يمكنه أنْ يفهم حقيقة الموقف ؛ وإنْ فهم فلا يمكنه أن يتذكر ذلك إلا لمدة خمس دقائق . أقنعت نفسى بالتغافل عن أعماله ، وأن أستمر على عملى ، ولكن نيران الحقد ، ولهيب الكراهية ، جعلا منى مرجلاً ثائراً ... !

نظرت إلى يدى القويتين ، وأحببت أن أداعب بها رأس من تسول له نفسه العبث بأشياء تخصنى ، أما أن يكون هذا الشخص «مانى» فإننى لا أستطيع حتى رفعهما

استمررت فى عملى ، وأنا جد متعجب من سكان القرية . ترى ما الذى جعل « مانى » محبوباً منهم ، وأنا أحمل له من البغض والكراهية ما ينوء تحتهما كاهلى ؟ ! وطبعاً لم يكن الذنب ذنبه ، أحبه الناس أم لم يحبوه ، وشعورى بالكراهية له ناجم عن عدم الإكبار للرجال الضعفاء وغير المرغوب فيهم ، كرهى لكل عضو لا يقوم بعمله تمام القيام

تحملت منه ما لم يتحمله أهل القرية الأنانيون الذين قدت قلوبهم من الصخر ، لا يعرفون قوياً ولا يرحمون ضعيفاً ، وحبى له لم يكن إلا شفقة به ، ورثاء له .

انتهيت من عملى ، ولم أنتبه للشخص الشراب بمنقه ليرى ما أعمل ، مما سبب اصطدامى به ، وبعدها

ألفيتنى محلقاً فيه . أما هذا الشخص فكان « مانى »

تملكنى الغضب الشديد ، فصحت به : بحق السموات ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ !

ودفعته دفعة قوية لأزيحه عن طريقى .

ترنح إلى الخلف بمجرد اختلال توازنه ، وغارت عيناه الزرقاوان فى محجريهما متعجبتين ، سائلتين ، ولم أكن رأيتهما على هذه الحالة من قبل .

ثم اصطدم ببعض آلات مبعثرة هنا وهناك ، وسقط سقطة أفقدته الرشد .

زاغت عيناى واشتد بى الخوف ، وأحسست بفيض من العواطف يدفعنى إلى مساعدته فى القيام . وفجاءة ، رأيتنى مادا إليه يدى أساعده على القيام .

شعرت وأنا أنحنى إلى الأسفل أن يدى قد بللتا ، ونظرت إلى الأسفل فرأيت قطرات حمرا على الأرض على بعد ست وثلاثين عقدة منى .

حينئذ عرفت أن رأسه قد دق ببعض أدوات سببت شج رأسه ، فظننت أنه مات ، ولكننى شاهدت صدره يعلو ويهبط ، فعرفت أنه لم يفارق الحياة . لم أعر ذلك اهتماماً بادىء ذى بدء ، وطمأنت نفسى بأنه لن يلبث أن يستفيق . وبرغم ما كنت أتظاهر به من الهدوء ، كنت معتقداً أن إصابته خطيرة .

سرت نحو التلفون وطلبت الطبيب قائلاً : أصيب مانى بيترز ـ بحادث خطير فأرجو أن تأتى بسرعة . وعلقت « السماعة » ورجعت إلى ـ مانى ـ أسائل نفسى ماذا يمكننى عمله حتى يصل الطبيب . استطعت أن أقف النزيف ، ولكننى لم أعرف ما يجب أن أعمله أيضاً ، وهكذا جلست إلى جانبه . منتظراً مجيء الطبيب ، محاولاً جهدى ألا أفكر فيما سبب هذه الحادثة .

جاء الطبيب فى وقت مناسب ومعه خمسة رجال من أهالى القرية ممن أعرفهم . لقد كانوا فى بيت الطبيب ساعة أن أخبرته بما حدث . ولما سمعوا ما قاله الطبيب بشأن « مانى » أتوا معه ليعرفوا حقيقة ما حدث

وكما قلت قبلاً إن أهل القرية جميعهم يحبون « مانى » ما عداى فتأثروا لما أصابه

لم ينبس أحدنا ببنت شفة ، حتى فرغ الطبيب من الفحص ، فرفع إلينا وجهاً ممتقعاً ، فكان ذلك جواباً كافياً وفر على السؤال

تكلم بهدوء قائلاً : إن إصابته خطرة جداً ، فليخبر أحدكم مستشفى « آردين » ليرسلوا نقالة لحمله . ثم التفت وسألنى عن كيفية وقوع الحادثة فأخبرته بما حدث ، فأومأ برأسه فاهماً

غير أننى لاحظت الخمسة الآخرين ينظرون إلى مستغربين ، ورأيت واحداً أو اثنين ـ لا أتذكر ـ ينظر إلى متشككا

عشر دقائق مؤلمات مرت ، حتى وصلت النقالة . ولم تمض دقيقة أخرى حتى كان الطبيب ومانى فى طريقهم إلى مستشفى « آردين »

شعرت بحمى خفيفة ، وذهبت إلى حيث أستطيع أن أتنفس ، لأن هواء « الجاراج » يكاد يخنقنى . وقبل أن أصل إلى حيث أردت ، سمعت قائلاً يقول : فيلد ، دقيقة من فضلك ، لا يمكننى أن أدعك تذهب الآن

فالتفت قائلا : ولم ذلك يا جاك ؟ ألم تصدق ما أخبرت الطبيب به ؟

وظهر فى هذه اللحظة الأربعة الآخرون

ـ لا ، لا ، إن أحدا لم يصدق ذلك لما نعرف من مبلغ حقدك على « مانى »

تملكني غضب مفاجيء . إنهم يظنون أنني فعلت ما فعلت عن عمد وإصرار

ظننتني قادراً على إقناعهم بادئ الأمر بأن ما حدث لم يكن إلا صدفة سيئة ، أما الآن فإن ذلك لا يزيد مركزي إلا حرجاً

انثنيت إلى جاك قائلاً : تظنني حاولت قتل مانى ؟ أليس كذلك ؟ ! حسن ، ظن ماشئت ، فلستُ أبالي . والآن تفضل بالخروج وإلا أصابك ما لا يعجبك

فكان جوابه أن رفع يده وضربني بقوة ، إلا أنني تحاشيت ضربته بحركة خفيفة من رأسي ، فاستدار حول نفسه وسقط على الأرض يتدحرج

فلما رأى الأربعة الآخرون ما حل بصاحبهم هجموا عليّ دفعة واحدة كالذئاب الكاسرة يريدون تمزيقي . وسمعت « لودين » يقول : آه ... هل تقدر أن تفعل بنا ما فعلت بمانى . إيه ؟ حسن ، إنك لا تقدر ، إننا لا نتصارع من أجل جائزة كما تفعل ، ولكننا سنلقي عليك درساً لن تنساه مدى الحياة .

دافعت عن نفسي دفاع المستميت ، ولكن ما حيلتي إزاء خمسة رجال أشداء ؟ نعم أسقطت اثنين منهم ولكن الباقين تمكنوا مني وضربوني ضرباً مبرحاً . وأخيراً وجدتني ممدداً على الأرض مشرفاً على الإغماء

أذكر أنني سمعت « لودين » يتكلم بالتلفون طالباً نقالة أخرى ، وبعدها لم أكد أفقه شيئاً مما يدور حولي ، إذ أن الإغماء غلبني

أفقت من الإغماء ، فرأيتني على سرير أبيض من أسرّة المرضى ، ثم رأيت ممرضة منحنية فوقي وكان إلى جانبها طبيب فعرفت أنني في المستشفى .

سأل الطبيب الممرضة عن حالي ، فأجابته أنني أحسن من ذي قبل . ثم التفت إليّ مستفهماً : ما الذي حدث ؟ !

فأجبته بصوت ضعيف : تشاجرت . ثم أردفت : هل كسر شيء ؟ !

تمتم الطبيب : تشاجرت ؟ وتابع فرحاً : آه ، لا ، لم يحدث شيء مما تعني ، إنما كل ما هنالك رضوض لن تلبث أن تزول آلامها فيمكنك أن تخرج بعد يومين . ثم انصرف

أردت أن أسأل عن « مانى » ولكن حالتي كانت من الضعف بحيث لم أستطع معها أن أتكلم . سرى بي التفكير إلى الرجال الذين أشبعوني ضرباً . ومن الغريب أنني لم أشعر نحوهم بذرة من الحقد ، وكأن ما حدث لم يكن إلا خيالات وأوهاماً

غير أنني سعيد ، سعيد لأن عظامي لم يصبها عطب ، وإلا لكانت الدنيا لديّ أضيق من سم الخياط . وأدركت أخيراً أن عملي كان جنونياً . تُرى من يصدقني إذا قلت إنني دفعت «مانى» دفعة لم أبغ من جرائها قتله ؟ !

وفجأة وثب إلى ذهني خاطر أذهلني ، واصطكت أسناني رعباً ، وهو ما سيكون شأن الشرط مني إن ... إن هو مات ؟ !

انقبض صدري لهذا الخاطر المروع ، وكدت أصيح بكل ما في حنجرتي من قوة . والفضل في إنقاذي من هذا الموقف الممرضة التي دخلت في تلك اللحظة فأزمعت سؤالها عن مانى ، قلت :

— إن لي زميلاً هنا اسمه « مانى بيترز » كيف حاله ؟

فأجابتني بصوت هادئ :

— إنه في حالة سيئة ، وإنه الآن في غرفة الجراحة لإجراء عملية جراحية خطيرة

فسألتها بلهفة :

— هل تدعينني أذهب لأرى ما يعملون ؟

ففغرت فاها متعجبة ، ولكنها لم تلبث أن استعادت ثباتها وتعهدت بأنها ستفعل ، وتركتني وانصرفت ...

قضيت مدة أتقلب على فراش الألم خائفاً مذعوراً مما سيحدث لي ولماني . لم أكن أشتكي في ذلك اليوم من شيء ، غير أنني كنت منزعجاً مما سيحدث لي

وفي ذلك المساء أقبلت الممرضة قائلة :

— إن الأمل في نجاح العملية كبير جداً ، ولو أنهم لم يخبروا أحداً ، وإننا سنعرف عنها في الصباح كثيراً

كنت أريدها أن تقول إنه سيعود كما كان دون أن يكون في قولها هذا ذرة من الشك . لذا بقيت في حيرة من أمري ، مما أثر في حالتي وأخّر شفائي

وفي صباح اليوم التالي رأيت الممرضة مبكرة على غير عادتها ، فأحسست أن دقات قلبي توقفت ، وأن الدم قد جمد في شرايني . وتمثل أمامي بعين الخيال ماني ممدداً على السرير جثة هامدة . يالله من منظر مخيف تقشعر منه الأبدان ! وسألتها : ما هذه الضوضاء ؟ هل هو ماني ؟ هل ... هل مات ؟

— لا ، ولكنه يسير من سيء إلى أسوأ ، وقد سأل عنك ، فهل باستطاعتك أن تذهب إليه ؟.

لم أجبها على سؤالها ، بل أسرعت في إلقاء الأغطية عني ، وحاولت القيام فلم تسعفني أعضائي المنحطة ، فجلست على مضض

حاولت أن أسترد قوتي ، غير أن رأسي ، كاد ينفجر فأسرعت الممرضة نحوي ، ومددتني على السرير بهدوء ، ثم قالت بقلق ظاهر : سآتي بنقالة لحملك ، فأخبرتها أنني قادر على المشي على قدمي ، إذا هي ساعدتني . ففعلت ، ووصلنا إلى غرفة « ماني »

انحنيت فوقه ، وسألته عن حاله ، فأجابني وفي عينيه تلك النظرة البريئة الطاهرة : إن رأسي يكاد ينفجر ، ولكنني أحببت أن أراك حين علمت أنك أصبت أنت أيضاً ، ورغبت أن أراك سليماً معافى

شعرت بالدموع تجري على خدي حارة غزيرة . يمكن أن يكون معتوهاً ، ولكنني لم أر قلباً بريئاً طاهراً مثل قلبه .

عرفت أنه لم يتذكر ما فعلته به ، ولا كيف كنت أعامله دائماً .

وشعرت لأول مرة في حياتي منذ أن كنت طفلاً ، بشوق إلى الصلاة ، فأخذت أصلي ، وأصلي بحرارة . صليت وابتهلت إلى الله ، من أجل ماني ليشفى ، ولأستطيع أن أدعه في «الجاراج» . وكأن دعائي أجيب ، إذ أن — ماني — ترك المستشفى بعد شهر منذ دخوله وقد عاد كما كان ، لم يتغير .

إنه الآن يقضي جميع أوقاته إلى جانبي في الجاراج ، وإنه لم يعد يحدث لي المتاعب ، إنني أرغب أن يكون دائماً هناك ، لأنه يزيل وحشتي في وحدتي ، وقد جعلني أشعر بالشفقة والحنان . لكل من يكون مفتقراً إليهما .

عمانوئيل بطرس ابراهيم